الشعر والنثر فى الجاهلية

لخص الأستاذ الدكتور طه حسين كتابه (فى الأدب الجاهلى ، فى جملة واحدة اختتم بها الكتاب فقال :

« نحن ننظر الى الأدب الجاهلى كما ينظر المؤرخ الى ما قبل التاريخ ويتخذ لدرسه الوسائل التى تتخذ لدرس ما قبل التاريخ . فأما تاريخ الأدب حقا ، التاريخ الذى يمكن أن يدرس فى ثقة واطمئنان ، وعلى أرض ثابتة لا تضطرب ولا تزول فانما يبتدىء بالقرآن » .

والدكتور طه حسين انما أراد بهذا أن يرفض كل ما أورده المؤرخون القدماء من نصوص الأدب الجاهلى سواء فى هذا شعره ونثره . بل لعله عنى برفض الشعر عناية كبيرة جعلت حديثه عن النثر تكرارا لما قال فى أمر الشعر دون زيادة . فالعرب عنده « لم يحفلوا برواية الشعر ولم يحتاطوا فيها بل انصرفوا عنها طائعين أو كارهين ، ولم يراجعوها الا بعد فترة من الدهر وبعد أن عبث النسيان والزمان بما كان قد حفظ من شعر العرب فى غير كتابة ولا تدوين » وهو اذ يطبق هذا المنهج على نثر الجاهليين يعرى العصر الجاهلى تماما من كل ما يمت الى الفن القولى بصلة، ويبدأ من عند القرآن بداية الواثق المطمئن قائلا « ولسنا نخشى على هذا القرآن من هذا النوع من هذا الشك والهدم بأسا . نحن نخالف أشد الخلاف أولئك الذين يعتقدون أن القرآن فى

حاجة الى الشعر الجاهلى لتصح عربيته وتثبت الفاظه . نخالفهم فى ذلك اشد الخلاف لأن أحدا لم ينكر عربية النبى فيما نعرف ، ولأن أحدا لم ينكر أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه تتلى عليهم آياته . واذ لم ينكر أحد أن النبى عربى واذ لم ينكر أحد أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه فأى خوف على عربية القرآن من أن يبطل هـذا الشعر الجاهلى وهـذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين » .

واذا كانت هذه النظرية التى ساقها الدكتور طه حسين قد فشلت فى هدم الشعر الجاهلى هدما كاملاً اذ ظل ما نقلته كتب المؤرخين من شعرهم موضع اعتراف الدارسين وعنايتهم ، وان بدأوا يأخذونها بكثير من الحرص والعناية والفحص ، الا أنها ساعدت فى القضاء على الاهتمام بالنثر الجاهلى واهمال أمره . فان احتـاج المفسرون لألفاظ القرآن الى الاستشهاد بالشـعر العربى وأحسوا بضرورة الحرص على روايته فهم لم يحسوا بهذه الحاجة حيال النثر . وحتى هذا النثر الذى شاءوا أن يعترفوا به رفضه الدكتور طه حسين حين طبق نظرية الانتحال رفضا قاطعا. وتابعه كثيرون كما رأينا فانسدل ستار كثيف على نثر الجاهليين الا ما ندر من خطب سقيمة ، ومجموعة مما أسموه بسجع الكهان.

ومن هـذه النقطـة بالذات نبدأ ، فالقرآن باعتراف كل الدارسين نص ثابت لاشك فيه ، وحتى الباحث الذى شك فى كل شىء لم يشأ أن يسحب شكه هذا على القرآن فاعترف به نصا

صحيحا عربيا لا تقربه معاول الهدم بحال . والقرآن بهذا وبما يمثل من ثروة فكرية وبلاغية وفنية ضخمة هائلة يهدم كل محاولة لهدم الأدب الجاهلى هدما كاملا . والا فكيف يمكن أن نعتبر القرآن بداية أدبية لأمة من الأمم .. كيف يمكن أن يستقيم مع العقل والمنطق بل ومع طبائع الأشياء أن يظهر هذا الكتاب فجأة متكاملا فنيا وفكريا دون أن تكون له جذور يقوم عليها ويستمد منها قوته وتأثيره ..

كيف أحس العرب بقيمة القرآن وهو — اذا صح افتراض الدارسين — بداية لا أصل لها عندهم ، ولا شاهد يسبقه ويعروه القصور ليشير بقصوره الى كمال القرآن وأهميته .

الطبيعى والمنطقى كذلك أن العرب عرفوا من صور التعبير الأدبى ما جعل القرآن اليفا اليهم واضحا عندهم ، ثم دليلا بلاغيا ضخما على الوحى والرسالة .

ولسنا بهذا نريد أن نناقش نظرية الانتحال فهى ليست من موضوعنا فى شىء ، ولكننا فى واقع الأمر نريد أن نناقش قضية أعمق واخطر واكثر ثبوتا فى أذهان جمهرة الدارسين ، وهى أن القرآن بداية وما سبقه ليس بشىء .

وقد خلص الدارسون من هذا الحرج عندما قالوا : ليس القرآن شعرا وليس نثرا وانما هو قرآن .. متتبعين فى هذا الباقلانى صاحب اعجاز القرآن وعلماء عصره العباسيين .

فكأنما هم أرادوا أن يقولوا ان القرآن ليس وليد تطور فنى عرفه العرب وانما هو شيء فريد جديد تماما .. وهـذا صحيح من الوجهة الدينية . ولكنه لا ينهض دليلا على شيء من الوجهة الفنية . فاذا سلمنا ان القرآن صورة تعبيرية جديدة لم يكتب مثلها العرب قبله ، فلا نستطيع بحال أن نسلم بأنه كان بعيدا عن الفهم وتذوقهم ، والا كيف نفهم تذوقهم له ذلك التذوق الذى جعلـه معجزة قائمة بذاتها .

الطبيعى اذن أن العرب عرفوا من ألوان التعبير الفنى ماجعلهم يستطيعون تذوق بلاغة القرآن وادراك قيمته ورفعه الى القدر الذى أحلوه فيه . والطبيعى أيضـا أن القرآن لم يوقف حركة الانتـاج الفنى بحيث نستطيع أن نسمى العصر الجاهلى عصر ما قبل القرآن ؛ ونسمى العصر الاسلامى عصر ما بعد القرآن .. بل لابد أن الحياة ظلت سائرة ، وأن أذواق الناس أخذت تتبلور تدريجيا ؛ ولكنها لم تخلق من جديد خلقا .. وقد كان ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء منطقيا مع نفسه حينما ضم شعراء عصر صدر الاسلام الى شعراء العصر الجاهلى لغلبة الصبغة الجاهلية على شعرهم .. ولم يظهر — بكل أسف — للنثر من يفعل فيه فعل ابن سلام فى الشعر . ولعل هذا يرجع الى حد كبير الى أن صـورة النثر التى كانت أمام الدارسين عن العصر الاسلامى كانت تختلف فى حقيقتها كل الاختلاف عما تخيلوه من صورة له فى العصر الجـاهلى . فالجاحظ يقول فى (البيان والتبيين) : « لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا ولا أعدل

وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلعا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ؛ ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم » .. فالصورة التى يطالعها الدارسون للنثر بعد القرآن صورة مشرقة تدل على عناية بالمعنى وابانه عن قصد وليست كلاما ممروضا فيه عبث لفظى كذلك الذى نقلوه عن العصر الجاهلى ، ولا يمكن أن يتم هذا التغيير بين يوم وليلة ، وانما الطبيعى أنه تم على مراحل وأنه على أى حال امتداد لتراث سبقه واسهم فى تطوره ووضع بذرته الأولى . والسؤال هو : أين هذا النثر اذن ؟

القرآن نفسه يجيبنا على هذا السؤال ..

يقول ابن هشام فى السيرة ان الوليد بن المغيرة وهو من الد خصوم الاسلام قال عن القرآن « والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الأنس والجن ، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق » .

فالمسألة من الوجهة الفنية كانت معركة بلاغية بين القرآن وبين صور التعبير المختلفة التى عرفها العرب ، انتهت بانتصار القرآن انتصارا انتزع من عدوه هذا الاعتراف بالغلبة الساحقة .

فما هو كلام الأنس وما هو كلام الجن .. ؟

أما كلام الجن فالمقصود به سجع الكهان اذ يقول الجاحظ فى البيان والتبيين ان العرب فى الجاهلية كان فيها طائفة تدعى التكهن وانها تطلع على الغيب وكان كل كاهن منها يزعم انه سيخبر

له (رئى) من الجن يسترق له السمع فيعرف عن طريقة ما كتب للناس فى الواح الغد ، وقد عرف منهم سطيح الذئبى وشق ابن معصب الانمارى وسلمة الخزاعى وغيرهم ممن تجد حديثا عنهم فى الأغانى كما تجد نماذج من سجعهم واغرابهم .

وقد اكتفى القرآن بالقضاء على عبثهم بما أورده من صور بلاغية رائعة جعلت ما يأتون به ضحلا باهتا يقف عاجزا امام روعة بلاغة القرآن وسبكه . كذلك نهى الرسول عن سجع الكهان كما جاء فى اعجاز القرآن للباقلانى . والواقع اننا نحس أن هذا اللون من الكتابة انما كان يقصد به التأثير على عقول السذج من الناس ، واقناعهم — وراء طنطنة الألفاظ وغرابتها وما يعطى لها السجع من موسيقى — بصحة ما يدجل به هؤلاء الكهان ؛ وقد كان يكفى ان يؤمن الناس بدين صحيح وأن ترفع من على اعينهم غشاوة الجهل والكفر ليسقط الكهان وسجعهم من كل حساب .

اما كلام الانس فنحن نعرفه شعرا ونثرا .

ونزعم أن القرآن وهو يخوض معركة البلاغة مع العرب لم يزعجه أمر الشعراء فى شىء ، فقد اكتفى بأن وصمهم بأنهم الغاوون ، ولم يحتج الى جهد كبير ليصرف الناس عنهم . وما هو الا أمر القى فنفذ .. وربما كان الأمر أن الشعراء يمثلون طبقة معينة من التفكير وبالتالى قطاعا معينا من المجتمع ، جاء الاسلام ليقضى على جبروته وسطوته ، وعلى ما يتمتع به من حقوق موروثة جعلته يستبد بالحياة والناس جميعا .. فالشعراء كانوا يتكسبون من

مدح المترفين من أبنـــاء الجزيرة وقد جاء الاســـلام ليسوى بين الناس فبار ســـوق الشعر ، وأصبحت تجارته خاسرة فى عصر ينادى بالمساواة ، ويصرف جهد الناس وقدراتهم الى نشر الـدين والدفاع عن قضية الحق .. وربما كان الأمر أن الشعر كانت له مواسمه وجلساته ولم يكن هو الحديث المتداول اليومى الذى يشكل خطرا على الحديث الجديد . بل ربما كان الأمر أن الشعر كان يحمل قيما زائفة من فخر وعصبية واثارة للثر والفساد ، ومناداة بأحساب وأنساب كان يريد الاســـلام أن يقضى عليها ، وكان يكفى أن يحل فى قلوب الناس السلام ليبتعدوا وحدهم عن دعوى الحقد والبغضاء والتعصب ، وربما كان الأمر أن ما قرره الاسلام فى أمر الشعراء كان المجتمع العربى نفسه قد فرغ من تقريره بالفعل .. ربما كان الأمر هذا كله أو غيره ، الا أن الذى لاشك فيه أن القرآن ـــ وهو المعجزة البلاغية الأولى ـــ لم يقارع الشعر ولم يحسب له حسابا .

وربما كان الأمر أيضا فى كلام الوليد بن المغيرة أن الشعر أيضا من كلام الجن فقد كان الشعراء يعتبرون الشعر الهاما من قوى خفية هى الجن ، اذ كان لكل شـاعر شيطانا يلهمـــه ما يقول ، فيكون الشعر بهذا أيضا من كلام الجن .

بقى أمر النثر ، ونزعم أن المعركة البلاغيـــة الحقيقية التى خاضها القرآن انما كانت ضـــد النثر . ولست أعنى بالنثر هنا هذه الخطب المنتثرة فى بعض الكتب مثل الطبرى والأغانى والعقد الفريد والأمالى كنماذج من خطب الجاهلية ، وانما أعنى نوعا من النثر حفل بالمضمون والشـــكل معا ، نوعا خطيرا ملأ قلوب الناس وعقولهم ، نوعا يمتد تأثيره لا على فئة أصحاب البلاغة المزوقين المزينين وحدهم ، وانما يبعد أثره ليمتد الى كل فئات الناس.

ينقلونه ويتناقلونه فى اعجاب حقيقى وايمان كبير .. هـذا النوع خطره ليس فى لفظه وانما خطره فى مضمونه ، فالقرآن ككتاب دين لم تكن من مهمته أن يتفوق على أصحاب البلاغة فى ميدانهم وحسب ، وانما كانت مهمته أن يتغلغل فى قلوب الناس وعقولهم ليحمل لهم مفهومات جديدة يدخلها الى نفوسهم مكان مفهومات اخرى خاطئة احتلت هذه النفوس زمنا ..

جاء الاسلام ليقاوم عقائد فاسدة ، وليقاوم مبادىء فاسدة ، وليقاوم مثلا للحياة فاسدة .. وهذه العقائد والمبادىء والمثل انما تتمثل فى تراث كبير يملأ عقول الناس وقلوبهم فكان على الاسلام أن ينزع هذه العقائد نزعا ، وأن يزيلها ليحل محلها ما يشاء .. فكيف حارب القرآن هذه العقائد والمثل الخاطئة .. لقد لجأ القرآن الى القصص يستخرج منها العبر ويرسم بها المثل ويشرح بها الخير والشر .

ولجوء القرآن الى القصص دليل واضح على انه كان يعرف أنها الطريق الذى ينفذ به الى عقول الناس وقلوبهم ، فليس معقولا أن يخاطب الكتاب الكريم الناس بأداة جديدة عليهم وأسلوب لم يعهدوه من قبل ، بل الطبيعى ان القرآن الكريم فى اتجاهه نحو القصص انما كان يسد حاجة فنية عند العرب ، ويحل تدريجا محل فن قديم لديهم قارعه بنفس سلاحه وانتصر عليه .. وقد قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم الى مجالسكم ؟ قال : « كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا » فأخبار الجاهلية اذن كانت شيئا غير الشعر ، فما هى هذه الأخبار ؟

يقول الهمدانى فى كتابه (الوشى المرقوم) : « لم يصل الى أحد خبر من أخبار العرب والعجم الا من العرب ، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس . وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير وسيرها فى البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى اسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمن علم أخبـــار الأمم جميعا لأنه كان فى ظل الملوك اسيارة » .

هذه أخبار الجاهليـــة اذن ، لا يقتصر امرها على احداث الجزيرة وتاريخها وانما تمتد لتشمل ما حولها من ثقافات تؤثر فى عقلية العربى ويحفظها فى قلبـــه .. وهو يأخذ منهـــا كلها ما يستحق الرواية ، أى ما يستهويه ويستهوى غيره ، وتنتقل هذه الاخبار بين العرب تروى فى مجالسهم ويتسامرون بها ..

اكاد أزعم أن هذا اللون النثرى هو الذى عرف القرآن خطره على العقول والقلوب مما فشاء أن يقضى عليه بما قص من قصص . ويؤكد هذا ما يرويه ابن هشام من « ان النضر ابن الحارث كان من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بهـــا أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رســـتم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم

مجلسا فذكر بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه اذا قام ، ثم قال: أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم الى ، فأنا احدثكم أحسن من حديثه .... ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ؛ ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟ .. ويقول ابن هشام: وهو الذى قال فيما بلغنى : سأنزل مثل ما أنزل الله » .

فالمسألة اذن كانت شبه معركة تعتمد على القصة كفن يستهوى النـــاس ، وهو فى الوقت نفسه يترك أثرا لا يمحى فى النفس اذ يثبت مضمونه بشكل غير واضـــح ولا مباشر .. والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هو ، هل هذه القصص التى ذكرها القرآن الكريم جديدة كل الجده على العرب ، أم أن فيها اشارات الى قصص سبق أن عرفوا بأمرها وتناقلوها وحملت لهم من الدلالات ما شاء القرآن أن يمحوه ويحل محله دلالات أخرى ؟ .

الأقرب الى العقل والمنطق أن هذه القصص كان يعرفهـــا العرب ، فهم قد عرفوا ولا شك قصة موسى وقومه وقصـــة عيسى وقومه من هؤلاء الذين تنصروا منهم وهادوا . وهم لاشك أيضا قد عرفوا قصة ابراهيم عليه السلام مما تناقلوه جيلا بعد جيل وبذلك الشاهد الخالد القائم فى أرضهم وأعنى به الكعبة الشريفة .

وقصص القرآن انما رويت لاستخراج العبرة والعظة ، ولم يقصد منها التاريخ .. فهى والحالة هذه تريد أن تستعمل الفن القصصى فى املاء مثل بعينها .. وقريب الى المنطق أن القصص المستعملة فى هـذه الحالة ليست جديدة على العرب وانما هم قد الفوا أصحاب الأسماء التى وردت فيها ، والفوا الأمكنة التى جاء ذكرها والفوا القوالب الفنية التى استعملها القرآن ..

والقرآن حكى عن أمم سالفة كعـاد وثمود ، وحكى عن الأنبياء كموسى وعيسى ونوح وهود ويوسف ، وحكى عن مدن طفت حين اختل نظامها الاجتماعى ففسدت وهلكت ، وحكى عن أمكنة لها دورها فى تاريخ البشرية ، وهذا معناه أن العرب كانوا يعرفون قصص الأمم السالفة وقصص الأنبيـاء وقصص المدن وقصص الأمكنة .

بل ان فى قصص القرآن ما جاء على السنة الحيوان ومن ذلك قوله تعـالى : « حتى اذا أتوا على وادى النمل ، قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشـكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضـاه وأدخلنى برحمتك فى عبـادك الصالحين » صدق الله العظيم .. فليس غريبا اذن ان ترد فى القصص المروية لتفسير بعض أمثال العرب حكايات على السنة الحيوان ، وقد يكونون

قد عرفوها عن طريق صلاتهم ببلاد الهند والفرس وقد يكونون قد عرفوها من تراثهم هم ، وانما يأتى استعمال القرآن لهـا ليدل على انهم عرفوها على اية حال ..

ومن المعروف أن القصاص كانوا يجلسون الى النـاس بالمسجد أيام الخلفاء الراشدين يحكون لهم أحاديث الأمم الاخرى والاساطير ونحو ذلك .. ويذهب الأستاذ أحمد أمين فى كتابه فجر الاسلام الى أن هذه القصص قد استحدثت فى صدرالاسلام ويقول « روى عن ابن شهاب ان أول من قص فى مسجد رسول الله صلى الله عليـه وسلم تميم الدارى استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر الناس فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر ، فاستأذن تميم عثمان بن عفان فأذن له أن يذكر يومين فى الجمعة فكان تميم يفعل ذلك.. وفى رواية أخرى عن الحسن انه سـئل متى احداث القصص ؟ قال فى خلافة عثمان فسئل : ومن أول من قص ؟ قال : تميم الدارى » .

والواقع أن وجود هذه الظاهرة فى صدر الاسلام انما يعنى انها امتداد وليست شيئا جديدا على الاطلاق لاننـا نسأل .. وماذا كان هؤلاء يقصون ؟ الذى لا شك فيه انهم كانوا يحكون شيئا قديما تعود الناس أن يسمعوه منهم ، ولو انهم لا شك ايضا قد بدأوا يقومون باختيار ما يخدم الدعوة الجديدة ويؤكد رسالتها .. ولم يكونوا يقصون شيئا جديدا كل الجدة . ودليل

هذا ما يذكرونه عن النبى صلى الله عليه وسلم من انه استمع من تميم هذا الى قصة الجساسة والدجال ..

والغريب ان ما بقى لدينا فى كتب المؤرخين مما كان يرويه تميم يكاد لا يكون شيئا على الاطلاق ، وهكذا يقف تميم هذا دليلا على وجود القصة ، ويقف ضياع ما كان يرويه دليلا على ضياع قصص العرب التى كانوا يعرفون ويقصون .

ومعروف أن هناك منبعين كبيرين هما أقدم المنابع الاسلامية فى القصة ، اعنى بهما وهب بن منبه وكعب الأحبار . وكعب الأحبار اسلم فى خلافة ابى بكر او عمر وقد أخذ عن ابن عباس وأبى هريرة .. وروى له الثعلبى والكسائى الكثير من القصص. ولم يكن كعب الأحبار هذا بحال حجة فيما يتعلق بالاسلاميات وانما كان بلا شك حجة فيما عرف العرب من قصص . وشأنه فى هذا شأن وهب بن منبه الذى ذكرته لك من قبل والذى توفى فى صنعاء فى عام ١١٠ هـ وهو صاحب كتاب هام هو التيجان لعله المنبع الاول لما عرف العرب من أساطير حول نشأة الكون وقصص مبدأ العالم وظهور اللغات ونشأة اللغة العربية ، يقصها عليك فى أسلوب اقل ما يوصف به انه اسلوب قصصى. والكتاب تحت ايدينا واحسب اننى سأحدثك عنه بعد حديثا مفصلا لما له من اهمية خاصة فى موضوعنا ..

* * *

فالقصص اذن كان معروفا فى صدر الاسلام ، وقصاص صدر الاسلام نعرفهم ونعرف أسماءهم ، ومنهم من ضاعت قصصه مع ما ضاع ، ومنهم من بقيت بعض أعماله كوهب بن منبه ، ومنهم من تناثرت أخباره بين الكتب وعلى السنة الرواة ككعب الأخبار ..

والقرآن كما قلنا هو سيد الأدلة ، فما دام القرآن قد استعمل القصة واعتمد عليها ، كما أن من الثابت أنه فى صدر الاسلام عرف العرب القصاص وتناقلوا عنهم ، فلا شك اذن أن الجاهليين كان لديهم تراث كبير ضخم من هذا القصص .. وكما استطعنا من تتبع موضوعات القرآن أن نعرف موضوعات قصص العرب فنستطيع كذلك أن ننظر نظرة سريعة فى قصص القرآن من ناحية السرد .

والقرآن يلجأ الى الاسلوب التصويرى فى قصصه ، فهو يصور الحدث ويجسمه ويدفع فيه بالحياة ، وهو يرسم المكان ويصوره ويشركه فى الحدث ، وهذا يعنى ببساطة أن أسلوب القصة العربية كان يعرف التصوير والتجسيد ويلجأ اليهما .

وقد لجأ القرآن الى الحوار يجريه على لسان شخوص قصصه يتجادلون ويتناقشون ، بل لقد لجأ الى أسلوب الحوار فى خطابه للمشركين وتردد فيه كلمة (قالوا) كثيرا ، كما تردد كلمة (قل) للرد على أقوال المشركين .. وهذا بالتالى يعنى

أن العرب قد عرفوا هذا الاسلوب ـ أسلوب الحوار ـ فيما رووا من قصص وما عرفوا من أساطير وحكايات .

الشاهد الذى اعتمدنا عليه فى هذا الفصل من بحثنا هو القرآن الكريم . وقد وقف الدارسون المعاصرون والقدماء معا كما قلنا فى مستهل كلامنا عنده مسلمين بصحته ، ولكنهم لم يحاولوا أن يأخذوا منه الدلالة الفنية القوية التى تشير اشارة واضحة الى هذا اللون من النثر الذى لا شك ان العرب عرفوه منذ عرفوا التعبير باللغة ، فليسوا أقل فى هذا من غيرهم من الامم .. والعرب كانوا يعرفون الدين قبل الاسلام ، ولكنه كان دينا وثنيا ، والدين الوثنى لابد أن يرتبط كما تقرر تواريخ الاديان بمجموعة من الاساطير تتعلق بالوثن المعبود ، كما لابد أن يرتبط بمجموعة أخرى من الاساطير تتعلق بالطقوس التى يتبعونها فى العبادة والتقرب الى أوثانهم .. وقد امتلأت الجزيرة العربية بالأوثان والأصنام من كل نوع ومن كل صنف ، بل لقد امتلأت الكعبة نفسها بالكثير من الأصنام لكل منها اسمه ودلالته .. وقد ارتبط العرب بطقوس معينة تغلغلت حتى أصبحت جزء من حياتهم ، فحملوا فى رحلتهم حجرا يعبدونه ما بعدوا عن صنمهم الاصلى ، بل لقد تقربوا بكل اصنامهم وأحجارهم زلفى الى الله فضلوا الطريق اليه .. وعرفوا التشاؤم والتفاؤل وغدت حوله حركات وتصرفات اشبه بالطقوس . ولست احسب أن كل هذا القى اليهم القاء فحفظوه ورددوه وآمنوا به خبط عشواء ، وانما أحسب انه تغلغل الى قلوبهم عن طريق الاساطير ، وأحسب

أنه ارتبط فى نفوسهم بأفعال معينة وطقوس بذاتها تخلفت لهم عن طريق الاساطير ، واحسب آخر الامر أن القرآن حاول محو كل هذه الاساطير محوا كاملا ، وحاول بما أورد من قصص أن يستغل هذا الفن الذى أولعوا به فى سبيل هدايتهم لا ضلالهم ؛ ورشدهم لا غيهم .. بهذا يستقيم الامر ولا يلتوى على أحد .

والواقع اننى لا أريد أن ازعم انه كانت هنـــاك قصص وحسب ، بل أريد ان اصل من هذا الزعم الى قضية أكبر بأن اؤكد أن هذه القصص كانت بالمكان الاول من الحياة الادبية ، وانها كانت الفن المفضل عند الغالبية العظمى ، بينما حفلت اقلية خاصة بأمر الشعر والخطابة .. وربما اعتبرها المسلمون بعد هذا من خرافات الجاهلية فأهملوها خوفا على دينهم وعقائدهم، وحرصا على ما وضعه فيهم الاسلام من مبادىء ومثل ، وربما استطاع القرآن أن يقضى عليها فى معركته البلاغية الظافرة بما قدم لعقول الناس وقلوبهم من أعمال تفوقها روعة وجمالا فاكتفى الناس بما فيه من قصص لاشباع حاجاتهم الفنية ..

الا أن بعض الشواهد قد بقيت محفوظة فى أذهان الرواة فنقلوها لمصنفى الكتب عندما تقـــادم العصر ، فدونوا ما تعلق منها بمن يعرفون من اهل الجاهلية محاذرين قلقين واعتبروها اخبارا لا فنا ، وعلما لا رواية .. ثم أتى المحدثون من بعـــدهم فوقفوا النثر الجاهلى على سجع الكهان والخطابة واغفلوا الفن القصصى اغفالا ما احسبه خلا من ظنه اهمال وغفلة .